الفلسفة الايكولوجية الراهنة.. نحو إعادة تأسيس علاقة الإنسان ببيئته

د. محمد بن سباع
جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2

ملخص:

لقد ترتب عن الوضع الايكولوجي الذي يتمثل في الأذى الكبير الذي ألحقه الإنسان بالبيئة و الكائنات الأخرى، إلحاق الضرر بالإنسان ذاته فمظاهر السيطرة على الطبيعة واستنزاف ثرواتها، جعلت الإنسان المتضرر الأكبر من هذا الوضع؛ لأنه أصبح يعيش حالة من الاغتراب ليس فقط عن بيئته، بل عن ذاته كذلك. لكن، لم يعد الإنسان مع الفلسفة الايكولوجية الراهنة، سَيِّدًا على الطبيعة كما كان، و لا مُتَمَيِّزًا عن غيره من الكائنات الأخرى في الوسط الايكولوجي،خصوصا عن النبات والحيوان.هكذا، فقد أصبحت مبادئ الفلسفة الايكولوجية الراهنة، خصوصا المُسَمَّاة بالايكولوجيا العميقة ضرورية وحتمية، ليس فقط للدفاع عن البيئة، بل عن الإنسان في حد ذاته. لذلك،فقد أصبحت علاقة الإنسان ببيئته في حاجة ماسة اليوم إلى رؤية جديدة،و إنها ليست بالمهمة السهلة؛لأنها تقتضي تغييرًا جذرياً في القيم والسلوكيات،و هو تغيير يقوم على التَّحَوُّل من النظر إلى البيئة على أنها وسيلة إلى اعتبارها غاية في حد ذاتها.

الكلمات المفتاحية: الايكولوجيا، التمركز البشري، المشكلات البيئية، التربية البيئية، الفلسفة الايكولوجية العميقة.

Abstract

The ecological situation represented in the large huge harm that humans have done to the environment and its creatures has resulted harm to human itself, because the sign of control over nature and draining its treasures turned the man to not live only for his environment, but also for himself.

But with current ecological philosophy, human is no more a boss on a state of natural alienations, nor featured than any of the other creatures within the environment milieu like plants and animals. Only in that way, the principle of the deep ecological philosophy has become necessary and inevitable, not only to defend environment but to defend human himself. Therefore, the relationship between man and his nature is in a real need to a new vision, which is a mission that requires a radical change in the principles and behaviors based upon the change from looking at environment as a means, to consider it as a goal for itself.

Key Words: Philosophical Ecology, anthropomorphism, Environment problems.

مقدمة :

لقد أصبحت حماية البيئة مشكلة حضارية تمثل التَّحَدِي الأكبر أمام إنسان اليوم، إذ ليس بالأمر السهل انجاز هذه المهمة، وذلك لأنّ المشكلات البيئية هي بالأساس مشكلات في الوعي والسلوك الإنساني، ترجع إلى فكرة أن الإنسان مركز الطبيعة وأنه سيد عليها. إن هذه الوضعية التي آلت إليها

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

البيئة، هي التي جعلت الفلاسفة الايكولوجيين من أمثال «لوك فيري» و«روجر سكروتون» و«هانز يوناس» وغيرهم، يحاولون السعي نحو تأسيس سلوك أخلاقي جديد، يعمل على التَّحَوُّل من استغلال البيئة إلى المحافظة عليها.

تؤكد الفلسفة الايكولوجية على أنّ الإنسان لا يتميز عن غيره من الكائنات الأخرى، بل هو عضو مثلها، داخل الوسط البيئي، وانطلاقًا من التكامل الحيوي الموجود في هذا الوسط، يمكننا الحديث عن حقوق الكائنات الأخرى، على غرار حقوق الإنسان، ومنه مُبَرِّرُ تسمية هذه المُقارَبة بـ «الفلسفة الايكولوجية.. نحو إعادة تأسيس علاقة الإنسان ببيئته». ومن ثم نطرح التساؤل الموالي: كيف تسبَّبَت فكرة مركزية الإنسان للطبيعة، في إلحاق الضرر بالبيئة؟ وكيف حاولت الفلسفة الايكولوجية تجاوزها، لإعادة تأسيس علاقة الإنسان بالبيئة؟

أولا: الايكولوجيا / مقاربة مفهومية

إن كلمة البيئة من المصطلحات الشائعة وهي كثيرة الاستعمال في الحياة اليومية كما أنها ترتبط بمجالات متعددة، فنقول البيئة الاجتماعية والبيئة الثقافية والبيئة الطبيعية، وغيرها من أنواع البيئة. فالبيئة هي المكان الذي يحيا فيه الكائنات الحية، تؤثر فيه وتتأثر وتتفاعل معه: «أي إن مفهومها لا يقف عند حد الطبيعة الإلهية للكون، بما تنطوي عليه من ظواهر طبيعية لا دخل للإنسان فيها، بل يمتد هذا المفهوم ليشمل المحيط الحيوي والاجتماعي والثقافي للإنسان، باعتباره كائنا وجوديا فاعلاً ومتفاعِلًا مع العالم»[1]. لكن على الرغم من تنوع المجالات والميادين التي يمكن للبيئة أن ترتبط بها، إلا أن المجال المعروف عنه أنه الأكثر ارتباطا بالبيئة، هو الطبيعة الخارجية، أو الوسط البيئي الجغرافي الذي يعيش فيه الإنسان مع بقية الكائنات الحية.

إذا كان الحديث عن البيئة قديم قدم التفكير الإنساني، نظرا لإدراك العلماء والمتفلسفة السابقين أهمية البيئة، فإن هذه الأهمية، ازدادت مع تقدم الوعي

---

1 راوية عبد المنعم عباس، رسالة من الفلسفة إلى الحياة، ط1، دار الوفاء، القاهرة، 2013، ص 200.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

الإنساني بقيمة الوسط البيئي الذي نعيش فيه، وبالتالي ضرورة المحافظة عليه من خلال المحافظة على علاقاتنا التي تربطنا مع بقية الكائنات الأخرى، التي تقاسمنا العيش في هذا الوسط. لذا، قبل أن نتعمق في المشكلات الفلسفية التي طرحتها الفلسفة الايكولوجية الراهنة، خصوصا ما تعلق منها بنقد فكرة التمركز البشري، وكذا محاولة التأسيس لفلسفة أخلاقية بيئية جديدة، تُنَظِّرُ لعلاقة الإنسان ببيئته، وغيرها من المسائل الأخرى، نحاول ضبط دلالة مصطلح الايكولوجيا، وهي مقاربة مفهومية لا تسعى إلى تكرار بداهات سائدة، وإنما هي قراءة افتتاحية تبرر الحديث عن راهن السؤال الفلسفي حول البيئة وعلاقة الإنسان بها.

تتألف كلمة الايكولوجيا (Ecologie) من شقين، الأول «oikos» باللغة اليونانية ويعني مسكن أو مأوى أو بيت. أمّا لوغوس «Logos» فهو يوناني الصِّياغَة، ويعني دراسة أو علم. وأول من أَسَّسَ هذا الحقل المعرفي، هو العالم البيولوجي الألماني أرنست هيكل (Ernest Heckel) سنة 1866 وعنى به دراسة العلاقة بين الكائن الحي والبيئة. هكذا، يمكننا القول أن الايكولوجيا، هي علم دراسة شروط الوجود بمعناه البيولوجي، وهو العلم الذي يدرس الأوساط حيث تُولَدُ وتحيى الكائنات الحية وحيث تكون بينها تفاعلات من جهة، وبينها وبين البيئة التي تُمَكِّنً لها الحياة، من جهة أخرى[1].

تَعنِي البيئة مجموعة العناصر الطبيعية والاصطناعية التي تحيط بالكائنات والتي تُحَدِّدُ إطار حياتها. إنها تعني كذلك العلم الذي يدرس علاقات البشر مع مختلف الأوساط الأرضية، وهي بذلك تُشَكِّلُ جزءا مهما من علم البيئة، أو العلم المخصص للعلاقات بين الكائنات الحية فيما بينها، ولعلاقاتها مع محيطها[2]. إذ يدرس هذا العلم العلاقات بين الكائن وبيئته من جهة، وبين الكائن الحي وبقية الكائنات، من جهة أخرى، داخل المحيط البيئي. لكن الأهم في كل هذا، هو أن علم البيئة يهتم خصوصا بالجانب البيولوجي في هذه العلاقات؛ من ناحية أن

1 Gilbert Hottois et Jean-Noël Missa, Nouvelle Encyclopédie de Bioéthique, médecine, environnement, biotechnologie, De Boeck Université, Belgique, 2001,p 350.

2 جورج قاضي، تهديدات البيئة، منشورات عويدات، بيروت، 2008، ص 46.

استمرار وجود وحياة كائن ما في البيئة، يتوقف على استمرار وجود كائن آخر، ككون النبات مثلاً هو غذاء للحيوان، وأن الحيوان هو غذاء للإنسان، وهذا ما يدخل في إطار توازن النظام البيئي.

عَطفًا على ما سبق ذكره، يتبين لنا أن علم البيئة يتجه إلى دراسة علاقة الإنسان بالمحيط البيئي عموما، خصوصا من ناحية الأثر الايجابي أو السلبي المُتَرَتِّبِ عن تعامل الإنسان مع البيئة، من خلال النشاطات التي يقوم بها، وبالتالي مدى مراعاته لبقية الكائنات، وحتى جوانب الطبيعة الأخرى، كالهواء والجبال والأنهار والمحيطات، وغيرها.

ثانيا- الإنسان والمشكلات البيئية / من البيئة إلى الفلسفة.

إذا كان هدف علم البيئة هو المحافظة على التوازن البيئي، فإن الفلسفة الايكولوجية تراعي الجوانب الأخلاقية والحقوقية في العلاقات بين الإنسان ومحيطه البيئي، من ناحية التأكيد على أنه مثلما للإنسان الحق في العيش في البيئة والاستفادة منها في توفير متطلبات حياته، فإن لبقية الكائنات الأخرى كذلك الحقوق ذاتها. لكن التصور الفلسفي القائم حول علاقة الإنسان بالطبيعة والبيئة، عرف تحولات كثيرة، عبر أهم مراحل الفكر الفسلفي، حيث وجدنا أن الموقف التقليدي اتجه إلى التمييز بينهما من خلال ثنائيات كثيرة، أهمها الفكر والطبيعة، الروح والآلة وغيرهما.

يُعتَبَرُ أرسطو أول من أَكَّدَ على أن الطبيعة مصدر منفعة للإنسان، وهو تصور كَرَّسَ أولوية الإنسان على الطبيعة، وفتح أمامه إمكانية واسعة لاستغلالها. إن هذا الموقف الأرسطي عرف استمرارا بل تطويرا في العصر الحديث، وتحديدا مع الفلسفة الديكارتية، إذ رأى ديكارت أن الإنسان سيد الطبيعة، من خلال إعطائه الأولوية للفكر على الطبيعة، واحتقاره للكائنات الأخرى التي لا يمكنها أن تكون مثل الإنسان. لكن الفلسفة المعاصرة والراهنة، عرفت تَحَوُّلًا جذريا في الموقف الفلسفي من علاقة الإنسان بالبيئة، تَحَوُّلٌ رافق ظهور الآثار السلبية الكثيرة التي

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

ترتبت عن استغلال الإنسان للبيئة، وللكائنات الأخرى. هذا الوضع الجديد، بَرَّرَ لإعادة التساؤل حول أهمية البيئة، وضرورة تدخل الإنسان لحمايتها من الإنسان ذاته. لذا سنحاول التعمق أكثر في دفاع الفلسفة الايكولوجية عن البيئة ضد الإنسان بعد التعرف على أهم المخاطر التي ألحقها الإنسان بالبيئة.

لقد تطور الإحساس بالبيئة كثيرًا منذ الخمسين سنة الماضية، فبعد انفجار قنبلة هيروشيما وحادثة تشيرنوبيل[1]، والرحلات المأهولة الأولى إلى الفضاء، بدا لنا كوكبنا أصغر بكثير مما كنا نعتقد وأكثر قابلية للعطب، حيث أجرت الكاتبة الأمريكية «راشيل كارسون» في كتابها «الربيع الصامت» الذي نشر عام 1962 مقارنة بين التقدم التكنولوجي والإساءات اللاحقة بالطبيعة، حاولت من خلالها أن تُظهِرَ مدى خطورة التهديدات التي تعترض كوكب الأرض[2]. كما حاولت المؤتمرات الدولية ومؤلفات العلماء والفلاسفة، أن تدق ناقوس الخطر الذي أصبح يهدد البيئة. لقد انعقد في عام 1972 بمدينة ستوكهولم، مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية، وقد سبقت المؤتمر مرحلة إعداد لمدى عامين، حَفِلا بنشاط عالمي شمل المجتمعات الصناعية والمجتمعات النامية، فكان أهم ما ميز هذا المؤتمر، هو الإعلان العالمي للبيئة ووضع توصيات مثلت منطلقات أساسية لفهم البيئة، ومواجهة المشكلات التي أوجدتها مطالب الإنسان المتزايدة والمُترَفَة، في الكثير من الأحيان[3].

إنّ من أهم التوصيات التي كانت تخرج بها الملتقيات والمؤتمرات التي تعقد حول البيئة، هي ضرورة مسايرة الوعي الإنساني للتطورات الجديدة التي عرفتها

1 «يحتوي مصنع تشرنوبيل النووي، الذي بني في السبعينات، على ستة مفاعلات، منها اثنان كانا قيد الإنشاء. خلال ليلة الانفجار، كان فريق العمل في المصنع يقوم بتجربة جهاز جديد، ارتُكِبَت أخطاء جديدة على الرغم من قواعد السلامة. خرج المفاعل رقم 4 الذي كان قد وضع في حالة الإبطاء عن تحكم المشغلين الذين عطلوا نظام التوقيف الطارئ لإجراء اختباراتهم، خلال عدة ثوان تضاعفت قدرته المحررة أكثر من مئة مرة، وارتفعت درجة الحرارة بشكل كبير، وأدى تتابع التفاعلات الكيماوية إلى انفجاره». أنظر:
جورج قاضي، تهديدات البيئة، المرجع السابق، ص 14.

2 أحمد محمد رفيع، الأحياء، المرجع السابق، ص 50.

3 رشيد الحمد، محمد سعيد صاريني، البيئة ومشكلاتها، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978 ص 23.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

البيئة، فقد بدأ الإنسان المعاصر يُدرِك فعلاً، أنه هو المتسبب الرئيس في المشكلات البيئية، ومثلما له حقوق عليها، كذلك عليه واجبات اتجاهها.

يتفق أغلب الدارسين والمتخصصين في قضايا البيئة ومشكلاتها، على أن الإنسان ذاته، هو مشكلة بالنسبة للبيئة، فأهم بل وأخطر المشكلات البيئية، هي «المشكلة السكانية»؛إذ يبين التتبع التاريخي لتزايد السكان، أن هذا التزايد، يسير في لولب تقصر حلقاته باستمرار، وسيصل في المستقبل المنظور إلى حد هائل يصعب معه توفير الغذاء، ومتطلبات الحياة البشرية الأخرى لهذا العدد من السكان. وبالتالي، فالنمو المتعاظم لعدد السكان، يمثل المشكلة الرئيسة للبيئة، فهو يُحدِث آثارًا موجعة فيها، كما أن أثر أي مشكلة بيئية أخرى، يتناسب بلا أي شك، مع حجم الزيادة في عدد السكان[1]. إن أخطار الإنفجار السكاني، والفناء النووي، هما أخطر ما ورثناه عن الثورة التكنولوجية، التي يتعين أن نُعايِشَها، ولكنهما ليسا الخطرين الوحيدين، فثمة سلسلة من المشكلات البيئية، مثل الأخطار البيئية المقترنة بالتلوث الناجم عن حرق الوقود الأحفوري، وهناك احتمال وجود علاقة ايكولوجية مماثلة بين عوادم السيارات، وبين عناصر الحياة النباتية، إذ تسبب ذبولا تدريجيا للكساء النباتي في الغابات. وأصبح واضحا بناء على شواهد كثيرة، أن تكنولوجيا الثقل وتوليد القوى، تنتج كميات كبيرة من الملوثات الضارة[2].لقد أدى التوسع المفرط للصناعة إلى تلوث البيئة، وهذا ما يعني موتها البطيء والتدريجي، إذ تسبب الصناعة الكيمياوية، في انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون، وهو الأمر الذي بين مخاوف، في أفق الحياة الطبيعية، بعدما توضح ثقب الأوزون وما تبعه من تحول في مناخ الأرض، وهو تحول يُنَبِّئُ بتقويض تدريجي ومنظم للكائنات الحية، بما فيها الإنسان[3].

1 رشيد الحمد، محمد سعيد صاريني، البيئة ومشكلاتها، المرجع السابق، ص 111.

2 آر. ايه. بوكانان، الآلة قوة وسلطة، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، العدد 259، الكويت، 2000، ص 253.

3 نورة بوحناش، الأخلاق والرهانات الإنسانية، إفريقيا الشرق، المغرب، 2013، ص 282.

هكذا، فقد بدأت تتعالى الأصوات مُؤَخَّرًا، بحجم الخطر الذي ألحقه الإنسان بالبيئة، وذلك لأنه وضع نفسه مركز البيئة، فاعتقد نفسه سيداً عليها، يمكنه استغلالها كما يشاء، فلم يدرك أن الحفاظ على البيئة، هو حفاظ على حياته، لذلك يجمع الكثير من المتخصصين في مشكلات البيئة بين هذه المشكلات كنتيجة، وبين الإنسان كمتسبب فيها.

ثالثاً: البيئة بين التربية والالتزام الأخلاقي

تقوم الفلسفة الايكولوجية الراهنة على نقد فكرة المركزية البشرية، القائمة على أن الإنسان سيد الطبيعة، وهي الفكرة التي تجد سندها الفلسفي في التمييز الذي أقامه ديكارت في العصر الحديث بين الأنا والعالم، وإعطاءه الأولوية المطلقة للأنا على كل الموضوعات الخارجية، بما فيها العالم والحيوان والنبات، وهو تصور نجده حتى بعض علماء العصر الحديث، من أمثال نيوتن، الذي رأى أن الطبيعة هي مادة لا حياة فيها، وينبغي علينا دراستها بطريقة فيزيائية رياضية فقط. وبما أن الفلسفة الراهنة هي فلسفة تنويرية جمهورية، خصوصا في فرنسا وألمانيا فقد استغل الكثير من الفلاسفة وسائل الإعلام، وما يعرف بالمقاهي الفلسفية، وحتى وسائل التواصل الاجتماعي، من أجل توعية الناس بمخاطر إلحاق الأذى بالبيئة فكان هدف الفلسفة الايكولوجية الراهنة، هو إعادة تأسيس علاقة الإنسان ببيئته وذلك انطلاقا من السؤال التالي: هل يمكن أن نتصور قيام التزام أخلاقي من الإنسان اتجاه الطبيعة؟.

على الرغم من أن المشكلات البيئية، على اختلافها وتنوعها، موجودة منذ مدة زمنية طويلة، إلا أن البيئةلم تصبح موضوع بحث واهتمام تربوي أخلاقي، إلا في الفترة المعاصرة، لذلك يولي الكثير من المفكرين والفلاسفة، أهمية كبيرة للتربية البيئية، عند حديثهم عن الأبعاد الفلسفية الأخلاقية للمشكلات البيئية، إذ تعرف التربية البيئية، بأنها عملية تكوين القيم والاتجاهات والمهارات والمُدرَكات اللازمة لفهم وتقدير العلاقات المعقدة التي تربط الإنسان وحضارته بالبيئة،

التي يحيا فيها، وتُوضِح حتمية المحافظ على موارد البيئة، وكذا ضرورة حسن استغلالها لصالح الإنسان، حفاظا على حياته الكريمة ورفع مستويات معيشته[1]. لقد تعمق الاهتمام بالبيئة في النصف الثاني من القرن العشرين، كنتيجة لظهور المشكلات البيئية سابقة الذكر، هنا يمكننا التأكيد على أن المشكلات البيئية، في جوهرها مشكلة سلوكية، يتم حلها عبر خلق قيم سلوكية تربوية جديدة، تعمل على حماية البيئة لا تدميرها. وبما أن التربية البيئية أصبحت ضرورة ملحة، فإننا نجد الكثير من الدول الغربية تولي لها أهمية كبيرة في أولى المراحل التعليمية، لكي يَعِي المتعلِّمُون منذ الصغر، أهمية البيئة وضرورة المحافظة عليها.و عليه، تهدف التربية البيئية أولاً،إلى توجيه انتباه الإنسان المعاصر إلى ما ألحقه بالبيئة من أضرار، وما ترتب عنها من مشكلات، وتهدف ثانيا إلى العمل على إيجاد حلول لهذه المشكلات، وهنا تتدخل أخلاق البيئة.

تربط الفلسفة الايكولوجية بأخلاق البيئة أشد الارتباط، إذ لا يمكننا الحديث عن فلسفة البيئة، إلا بالانطلاق منها، وهذا ما عبرت عنه تلك الدعاوي التي نجدها بعض المفكرين الغربيين، سواء في العقود الأخيرة من القرن الماضي، أو في بداية الألفية الجديدة، مؤكدين على ضرورة حماية البيئة، ونخص بالذكر هنا «لوك فيري» (Luc Ferry) الذي يقول في كتابه «النظام الايكولوجي الجديد»: «من الضروري تجاوز هذه النزعة الإنسانية، والسعي نحو تنصيب سيادة نباتية وحيوانية بالمعنى الأخلاقي وقانوناً متماسكاً يبقى راسخاً، حتى يكون قادراً على أن يكون مقابلاً لمنطق هذا الذي نال شهرة كبيرة «حقوق الإنسان»»[2]. هكذا، بعد أن كَرَّس الفلاسفة جهودهم، عبر كل مراحل الفكر الفلسفي لدراسة مشكلات الأخلاق الإنسانية، حدث تَحَوُّلٌ مهم في الفكر الأخلاقي الراهن، ترتب عنه الحديث عن المعاملة الأخلاقية اتجاه البيئة وكائناتها. لكن كيف يمكن أن نتحدث عن إمكانية تأسيس أخلاق ايكولوجية جديدة؟ ألا يمكن أن نتصور وجود عوائق تحدمن هذه الإمكانية؟.

1 رشيد الحمد، محمد سعيد صاريني، البيئة ومشكلاتها، المرجع السابق، ص 180.

2 Luc Ferry, Le Nouvel Ordre écologique, L'arbre, L'animal et L'homme, éditions Grasset et Fasquelle, Paris, 1992, p 127.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

حقا، إن التأسيس لأخلاق بيئية جديدة، ليس بالأمر الهين، لأن هناك جملة من العوائق تتمثل في النظرة الغربية المهيمنة، التي لا تنسجم مع أخلاق البيئة فالطبيعة وفقا لها تُعَدُّ ملكيةً حَصرِيةً للإنسان، وهو حر في أن يتعامل معها كما يشاء (إنها لا توجد لأجله وحسب، على الأقل تبعا للتيار الرئيس الرواقي-الأوغسطيني).[1] لذا، تحاول الأخلاق البيئية، أن تؤسس لسلوك إنساني أخلاقي جديد اتجاه الطبيعة، يقوم هذا السلوك على مبدأ حفاظ الإنسان على الطبيعة.

يعترض «هانز يوناس» (Hans Jonas) على الموقف الديكارتي من الحيوانات التي نظر إليها على أنها مجرد آلة تؤدي وظائفها بطريقة آلية، لا غاية فيها، ذلك أن ما أهمله ديكارت، أو ما لم ينتبه إلى أهميته، هو علاقة الحيوان بالبيئة، فوظيفة الكائن لا ترتبط فقط بوظيفته العضوية، وإنما بعلاقته المميزة بالبيئة، فتفاعل الكائن الحي مع بيئته، هو سبب الحياة حسب يوناس، ففي الوسط البيئي، يُجَدِّدُ الكائن الحي احتياجاته الأساسية، كما أن يؤدي وظائفه داخله، بحيث إذا لم يجد فيه احتياجاته تركه باحثاً عن محيط بيئي آخر، وهذا لا يمكن تفسيره –حسب هانز يوناس- في ضوء فكرة الآلية الميكانيكية، بل يجب تفسيره، في ضوء فكرة الوعي الحيواني بظروف الوسط البيئي الذي يعيش فيه[2]. هذا الوعي هو ما يمكن اعتباره قاسماً مشتركًا بين الإنسان والحيوان، يعطيهما معا التميز ذاته داخل الوسط البيئي.

إنه لا يمكن تصور وجود حياة للكائن الحي، سواء كان إنساناً أو نباتاً أو حيواناً، إلا في إطار الوسط البيئي، ذلك أن معنى الحياة ينشأ من ارتباط الكائن ببيئته من جهة، وارتباط الكائنات الحية ببعضها البعض، من جهة أخرى. وهكذا فإن ما يحسب للوك فيري وهانز يوناس، وغيرهما من الفلاسفة الايكولوجيين، هو تجاوزهم للتمييز التقليدي بين الحياة الإنسانية والحياة الطبيعية، وهو موقف،

1 مايكل زيمرمان، الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الايكولوجيا الجذرية، ترجمة معين شفيق، عالم المعرفة العدد 332، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2006، ، ص 45.

2 وجدي خيري نسيم، الفلسفة وقضايا البيئة، هانز يوناس أنموذجا، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2009 ص 101.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

يدخل في إطار السعي إلى تجديد علاقة الإنسان بالبيئة.يقول لوك فيري مُؤَكِّدًا لهذا التصور: «إنّ فكرة «العقد الطبيعي» هي التي نريد أن نضيفها لإعلان حقوق الإنسان ومن الناحية الفلسفية، فإن هذه الفكرة قاسية، فمن البديهي أن هناك انفصالاً بين العقدين: في الإطار الإنساني الحقوقي، فإن الطبيعة لا يمكن أن تؤخذ صورة أخرى غير أن تكون موضوعاً لا ذاتاً»[1].و هذا ما يناقض ليس فقط أخلاق المنفعة التي تربط الأخلاق بمصلحة الإنسان، بل يناقض كذلك أخلاق الواجب الكانطية، التي ترى أن الإنسان غاية في حد ذاته، وبالتالي فإن الاهتمام بالوجود الخاص، هو مطلب كل كائن، وليس الإنسان لوحده، فالكائنات الأخرى:»تكافح من أجل التغلب على خطر اللاوجود، وعندما تتغلب عليه، يصبح الوجود في كل مرة وجودا ايجابيا، تم انتزاعه من العدم، كما أن هانز جوناس يساوي بين كل الكائنات الحية إذ لا فرق بين ما هو بشري، وما هو غير بشري، انطلاقا من سعى هذه الكائنات إلى تحقيق وجودها وإثباته، بحيث إذا توقف سعيها توقف في الآن ذاته وجودها أيضا إذن السعي إلى تحقيق الوجود يُرادِف عنده الحياة ذاتها»[2]. ذلك أنه مثلما يسعى الإنسان إلى تحقيق متطلباته التي تضمن بقاءه، كذلك تفعل بقية الكائنات، وهذا ما يثبت فعلا أن كل الكائنات الموجودة في الطبيعة لها وعي بوظيفتها في الحياة، وأن هذا الوظيفة ليست وظيفة آلية، وإنما هي وظيفة غَرَضِيَّةٌ بالأساس، ومن هنا تتأتى أهمية البيئة، بالنسبة إلى الكائنات كلها، وليس فقط بالنسبة إلى الإنسان لوحده.

يقوم النقد الذي وجهه هانز يوناس للفلسفة الأخلاقية التقليدية، على أنها لم تول أهمية للمسؤولية، خصوصا مسؤولية الإنسان اتجاه البيئة والكائنات الأخرى. أما تأكيده على ضرورة تَحَمُّلِالإنسان لهذه المسؤولية، فذلك راجع إلى سعيه لمواجهة رغبة الإنسان في السيطرة على البيئة والكائنات الحية، لذلك فعندما: «دعا يوناس إلى تأسيس المسؤولية اتجاه البيئة، انطلق من فكرة أن هناك غَرَضِيَّةً

1 Luc Ferry, Le Nouvel Ordre écologique, Op.cit, p193.

2 وجدي خيري نسيم، الفلسفة وقضايا البيئة، هانز يوناس أنموذجا، المرجع السابق، 181.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

مُحايِثةً لتلك الكائنات؛ بحيث تسعى بدورها إلى تحقيق ما ينبغي أن يكون والذي يُعَدُّ عنصراً متأصلاً فيها. إن دورنا هو أن نساعدها على تحقيق غايتها»[1]. يتعين علينا إذن إدراك أنّ التزامنا الأخلاقي اتجاه البيئة وكائناتها، لا يقل أهمية عن التزامنا الأخلاقي اتجاه بعضنا البعض نحن البشر، إنها أخلاقيات احترام الطبيعة.

رابعاً: الفلسفة الايكولوجية / من التمركز البشري إلى الايكولوجيا العميقة

يؤكد أغلب الفلاسفة الايكولوجيين والمشتغلين على قضايا البيئة، أن السبب الرئيس في انتشار الكثير من المشكلات الايكولوجية يرجع إلى فكرة «المركزية البشرية»، ذلك أن التطور التكنولوجي والصناعي الذي عرفته مرحلة النصف الثاني من القرن العشرين، أدى إلى وقوع كارثة إنسانية بيئية لم تُؤَدِّ فقط إلى الإخلال بالتوازن البيئي، بل حتى إلى تشويه جمال البيئة. لكن هذه الدعوة للعودة إلى البيئة والمحافظة عليها، لقيت الكثير من الصعوبات تمثلت خصوصا في اعتراضات أصحاب الشركات والمصالح الاقتصادية. «ذلك أن الاندفاعية الجذرية الشاملة للثورة البيئية المتمركزة ايكولوجيا في الستينات، لم يكن بمقدورها أن تتواصل في وجه مصالح الشركات متعددة القوميات، والأنموذج الإرشادي الغربي الحصين لـ «التقدم» (و عند اليسار، تحقيق العدالة الاجتماعية) عبر التنمية والنمو الاقتصادي بلا حدود»[2]. وهكذا، فقد أصبح ازدياد عدد السكان، إلى جانب التلوث الناتج عن الصناعة، من أكبر المشكلات البيئية، وإنّ الوعي بخطورة هذه المشكلات وغيرها هو الذي ترتب عنه حدوث التحول الفلسفي، نحو «المركزية الايكولوجية» أو ما يسمى بـ «الايكولوجيا العميقة» (Ecologie Profonde) أو «الايكولوجيا الجذرية».

تدافع الايكولوجيا العميقة عن البيئة لأجل البيئة، أي بما هي وسط لكل الكائنات بما فيها الإنسان، ومنه فهي تعمل على تقديم تصور أخلاقي جديد لعلاقة الإنسان بالبيئة، من خلال نقد فكرة المركزية البشرية. يعتبر الفيلسوف النرويجي

1 المرجع نفسه، ص 227.

2 مايكل زيمرمان، الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الايكولوجيا الجذرية، المرجع السابق، ص 132.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

«آرني نيس» (Arne Niss) هو أول من وضع مصطلح «الايكولوجيا العميقة»، وهي حركة لا تتوقف عند حدود التأكيد على المخاطر المترتبة عن الأذى الذي يلحقه الإنسان بالبيئة، والمتمثلة أساساً في المشكلات البيئية من قبيل الكثافة السكانية والتلوث، وانقراض الكثير من الأنواع الحية. وإنما تحاول تجاوز هذه المشكلات بالعودة إلى طبيعة وحقيقة العلاقة التي تربط الإنسان بالوسط الحيوي الذي يحيا فيه، فالإنسان المعاصر لم يدرك أنه لن يستطيع العيش إلا في وسط بيئي متنوع تكون مهمته هو تحديدا المحافظة عليه، لا إلحاق الأذى به.

إنّ من بين أهم الأسئلة التي تطرحها الفلسفة الايكولوجية العميقة، وتحاول بالتالي تقديم إجابات عنها: «بأي معنى يرى البشر أنهم متفوقون على الكائنات الأخرى؟ نحن مختلفون عنهم بامتلاكنا قدرات يفتقرون إليها، ولكن لماذا يجب أن تعد هذه القدرات علامة على التفوق؟ وما وجهة النظر التي يتم الانطلاق منها للحكم عليها بأنها إشارات للتفوق؟ وما معنى التفوق المقصود هنا؟ ثم بعد كل ذلك، ثمة أنواع حية غير بشرية متنوعة، تملك قدرات يفتقر إليها البشر؛ هناك سرعة الفهد الصياد، والرؤية الحادة للنسر، وخفة الحركة لدى القرد، لِمَ لا تعد هذه القدرات إشاراتاً على تفوق هذه الأحياء على البشر؟[1]. إن الفكرة الرئيسة التي تقوم عليها الايكولوجيا العميقة، وفي الوقت نفسه، الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه، هو تجاوز الخط الفاصل بين الذات الإنسانية والطبيعة، وبالتالي، النظر إليهما على أنهما كل متكامل، وتجاوز التصور التقليدي الذي ينظر إلى العلاقة بينهما على أنها علاقة صراع، وأن الإنسان سيد الطبيعة.

يناقش لوك فيري مسألة الأسباب التي أدّت إلى ظهور فكرة «المركزية البشرية» وبالتالي كيفية تجاوزها، حيث تبين له أن صفة العقلانية التي يمتاز بها الإنسان وتُمَيِّزُهُ عن الكائنات الأخرى، هي التي جعلته يسعى للسيطرة على هذه الكائنات، كما أن النظرة الفلسفية التقليدية التي ترى، أن الإنسان حيوان عاقل وناطق، هي التي كَرَّسَت مركزية الإنسان في العالم، مقابل الكائنات الأخرى، وهذا ما يؤكده

1 مايكل زيمرمان، الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الايكولوجيا الجذرية، المرجع السابق، ص 124.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

في قوله: «يمكننا أن نتحدث عن مواقف فلسفية معارضة لحقوق الحيوان، الموقف الديكارتي القائم على أنّ الطبيعة محكومة بسلطة الحيوان، وكامل خصوصية الحق تأخذ معناها من القيمة التي تميز الذات الإنسانية. هذا، إضافة إلى التقاليد الجمهورية والإنسانية، كما تجلت مع روسو وكانط. ولكن أيضا بإسهام الفكر الفرنسي، في القرن التاسع عشر. هذه المواقف الفلسفية وغيرها كَرَّست فكرة: الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتمتع بالحقوق»[1].وعليه، إذا كانت مسألة حقوق الإنسان في البيئة نُظِرَ إليها انطلاقا من العقلانية التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات، وبالتالي فهي تعطيه صفة التميز عنها، وحق استغلالها لخدمة مصالحه الخاصة، فإن الحديث عن مسألة حقوق البيئة وكائناتها الأخرى، يتأتى كذلك من تميزهما عنه، إذ أننا نجد أن بقية الكائنات الأخرى، بما فيها النبات مثلاً، تُحَقِقُ اكتفاءها الذاتي وتضمن حياتها دون عقلانية، وهذا ما يميزها عن الإنسان ويجعلها في غِنَى عنه بل هو الذي يكون في حاجة دائمة ومستمرة للنبات والحيوان، لذلك يجب على السلوك الإنساني اتجاه البيئة والكائنات الأخرى، أن يراعي كل هذه الخصوصيات التي تميزها عنه.

إذا كانت الايكولوجيا العميقة، تدعو للعودة إلى البيئة والمحافظة عليها فإنّ الحديث عن البيئة هنا يكون بمعناها العميق والشامل، إذ يتحدث الايكولوجيون عن البحار والأنهار والغابات، وكل ما يرمز إلى الحياة على الأرض، لذلك ترى الايكولوجيا العميعة، أن من واجب أخلاق البيئة أن تجعل من الطبيعة قيمة في حد ذاتها، من هنا، فإن مضمون الايكولوجيا العميقة يذهب مباشرة نحو تغيير تصور البشرية عن الحياة والسعادة، حيث تُعَارِضُ اليقين الإنساني القائم على أن التمييز البشري الفاصل فصلاً طبيعياً بين الإنسان والطبيعة، ومن ثمّ خلخلة هذه التراتبية التي تعتقد التمييز النوعي والثقافي للإنسانية، لتحقق من ثم الاندماج بين الإنسانية والطبيعة[2]. يتحدث لوك فيري عن أهمية الايكولوجيا العميقة في الفكر الراهن

1 Luc Ferry, Le Nouvel Ordre écologique, Op.cit, p68.

2 نورة بوحناش، الأخلاق ورهانات الإنسانية، المرجع السابق، ص 291.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

قائلا: «عَرَفَت الايكولوجيا العميقة صدى حقيقي في الأوساط الأكاديمية، وكذلك في الميادين الأخرى: إنها مرتبطة مثلا بايديولوجيا الحركات مثل (الأرض الأولى) وغيرها، وكذلك بالمؤسسات، كما تتأثر كذلك بأعمال الفلاسفة من أمثال، هانز جوناس»[1]، وذلك بهدف الدفاع عن البيئة وحماية التنوع الحيوي، مقابل أوهام المجتمع الصناعي المعاصر، الذي جعل الإنسان يتخلى عن أداء مهامه إزاء محيطه البيئي، فتميز الإنسان عن الكائنات الأخرى لا يعطيه حق استغلالها، وإنما على العكس من ذلك، يلزمه بالدفاع عنها. يقدم لنا لوك فيري مثالا توضيحيا بقوله: «شخص محكوم عليه بالإعدام، يعاني أكثر من حيوان يوضع في نفس الوضعية لأن الإنسان يعي طبيعة هذا الحكم، لكن أن يوضع حيوان متوحش في سجن، أي قفص فإنه يستحمل أكثر من الكائن الإنساني، لأنه يستحيل بالنسبة له أن يفهم الخاصية العرضية والمؤقتة لهذا السجن، أو أنها لن تسبب له أي أذى. يجب إذن، تكييف مبدأ العدالة الصوري، من نوع أن ما هو مشروع بالنسبة للإنسان، قد لا يكون كذلك بالنسبة للحيوان»[2].

يحيلنا الحديث عن مسألة حقوق النبات والحيوان في الفلسفة الايكولوجية الراهنة إلى الحديث عن التساوي في الحقوق بين الإنسان والنبات و الحيوان، ولا يعني هذا أن النبات والحيوان لهما الحقوق ذاتها التي يتمتع بها الإنسان، الذي يتميز بمحيطه الاجتماعي والثقافي الخاص، وإنما نحن نتحدث هنا عن حقوق ايكولوجية متساوية، راجعة إلى التواجد المشترك في وسط ايكولوجي واحد، ومنه ضرورة تحمل الإنسان مسؤوليته الأخلاقية في مراعاة حقوق الكائنات الأخرى، بل والدفاع عنها لأن في ذلك دفاعا عن مصلحة الإنسان ذاته.

1 Luc Ferry, Le Nouvel Ordre écologique, Op.cit, p 110.
2 Luc Ferry, Le Nouvel Ordre écologique, Op.cit, p 76.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

خاتمة:

هكـذا، ومـن خـلال حديثنا عـن موضوعة الفلسـفة الايكولوجية، يتبيـن لنا أننا اليـوم فـي حاجـة ضرورية وملحـة، لإعادة تأسـيس علاقتنا بالبيئـة، وذلك بالعمل أولاً علـى تجـاوز التصـور التقليـدي القائم على أن الإنسـان سـيد البيئـة، والعمل ثانياً –وهذا هو الأهم- على مراعاة حقوق بقية الكائنات الأخرى داخل المحيط البيئـي، وذلـك بالإلتزام الأخلاقي اتجـاه البيئة، وإن كانت كلا المهمتين صعبتين، نظـرا لوجـود الكثيـر مـن العوائـق والتـي يعتبـر تفضيـل الإنسـان لنفسـه علـى بقية المخلوقـات، هـو القاسـم المشـترك بينهمـا، إلا أنـه يمكـن تجاوزها تمامـا عندما يدرك الإنسـان أنه ليس سـيداًعلى البيئة، وإنما هو مجرد مشارك ومساهم فيها.

تدعو الفلسفة الايكولوجية الراهنة، إلى إعادة التفكير في المنظومة القَيمِيَّة التي تُعلِي من شـأن الإنسـان، وتَحُطُّ من قيمة الطبيعة، وذلك بهدف التأسيس لأخلاق بيئية جديدة، لأن حماية البيئة أصبحت مشـكلة حضارية تمثل التحدي الأكبر أمام الإنسان المعاصر، الذي هو مطالب أكثر من أي وقت مضى بالاهتمام بالبيئة، ولا يعني ذلك، أن يتوقف الإنسان تماما عن استغلال ثرواتها، أو عن صيد الحيوانات مثـلاً، وإنمـا يجـب أن يكـون كل ذلك في إطار عقلاني، حيث أنـه قبل أن يتحدث الإنسـان عـن حقوقـه، التـي يجب أن توفرها له البيئة، يجـب عليه أن يؤدي واجباته إزاءها، لأن المحافظة على البيئة وعي وسلوك.

© جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة 2 - 2016

قائمة بالمراجع:

– راوية عبد المنعم عباس، رسالة من الفلسفة إلى الحياة، ط1، دار الوفاء، القاهرة 2013، ص 200.

– جورج قاضي، تهديدات البيئة، منشورات عويدات، بيروت، 2008.

– أحمد محمد رفيع، الأحياء، منشورات العبيكان، السعودية، 2012.

– رشيد الحمد، محمد سعيد صاريني، البيئة و مشكلاتها، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، 1978.

– آر. ايه. بوكانان، الآلة قوة و سلطة، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، العدد 259، الكويت، 2000

– نورة بوحناش، الأخلاق و الرهانات الإنسانية، إفريقيا الشرق، المغرب 2013.

– مايكل زيمرمان، الفلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الايكولوجيا الجذرية، ترجمة معين شفيق، عالم المعرفة العدد 332، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 2006، ص 257.

– وجدي خيري نسيم، الفلسفة و قضايا البيئة، هانز يوناس أنموذجا، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2009.

- Hottois Gilbert et Jean-Noël Missa, Nouvelle Encyclopédie de Bioéthique, médecine, environnement, biotechnologie, De Boeck Université, Belgique, 2001.

– Ferry Luc, Le Nouvel Ordre écologique, L'arbre, L'animal et L'homme, éditions Grasset et Fasquelle, Paris, 1992, p 127.